ظاهرة العَذْل في الشعر الأندلسي

-دراسة وصفيّة تحليلية-

د. حمزة عبدالسلام الختاتنة*

تاريخ وصول البحث: ٢٠٢١/٨/٢٥م تاريخ قبول البحث:٢٠٢١/١١/٢٨م

المُلخّص

تناولت هذه الدراسة ظاهرة العَذْل التي سجّلت حضورها الواسع في الشعر الأندلسي، وشاعت في معظم دواوين الشعراء الأندلسيين، بنَسَقٍ شعري شكّل العَذلُ فيه جسرًا بين عاطفة الشاعر وإعادة بثّها للمُتلقّي على هيئة حوار يغلب عليه إدحاض الحُجة بين الشاعر والعاذل، متخذًا من العَذْل ذريعة في تلقّي اللّوم والعِتاب بأنماطه المُتباينة، وبتنوّع دلالاته وحَسَب الغرض الذي تبلور بنظم هذه الأشعار، وعلى اختلاف البيئة المُحيطة من شاعرٍ لآخر، واتّبع الباحث في دراسته المنهج الوصفي التحليلي، وانقسمت الدراسة إلى عدّة مباحث تناولت فيها: العَذل واللّوم واللّحي في الشعر الأندلسي، متجليّة في شعر الغزل والحنين للوطن وعهد الشباب وحلول الشيب مكانه، ومن النتائج التي توصلت لها الدراسة: أنه كان لاستحضار العاذل والتَوْق لسماع مفردات العَذل والإصغاء لها؛ سِمَةٌ أغنت النصّ الشعري بيانًا وإبداعًا في الموروث الأندلسي، ومن المحاور التي تبنّتها وتوصّلت لها الدراسة؛ هو حضور المرأة العاذلة في الشعر الأندلسي، واقتران العَذل باللّوم في مواطن عديدة من قصائد الشعراء مما تجلّى العَذْلُ بوصفه معادلاً موضوعيًّا ذا أبعادٍ نفسيّة لديهم، وقد شكّل العَذْلُ في أشعارهم منزلة كبيرة بين ضروب الشعر الأخرى، فتصدّر مطالع قصائدهم ولُبّ حقولها.

الكلمات المفتاحية: العَذْل، اللّوم، اللّحَي، الشاعر الأندلسي، الشعر الأندلسي

* محاضر متفرغ، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم، جامعة العلوم الإسلامية العالمية.

The Phenomenon of Blaming in Andalusian Poetry: A Descriptive and Analytical Study

Abstract

This study aimed at studying the phenomenon of blaming which is noted its wide presence in Andalusian poetry, and it was common in most of the collections of Andalusian poets. In a poetic form, the blaming formed a bridge between the poet's emotion and its retransmission to the recipient in the form of a dialogue dominated by the refutation of the argument between the poet and the blamer. This was through using the blaming as an excuse to receive blame and admonition with its different patterns, and according to the purpose that crystallized in the systems of these poems, and the different surrounding environment from one poet to another. The study was divided into several sections dealing with blaming in Andalusian poetry which was introduced into the poetry of flirting, nostalgia for the homeland, the era of youth, and gray hair in its place. Results revealed that it was to evoke the affliction and the yearning to hear the vocabulary of the affliction and to listen to them; A feature that influenced the poetic text as a statement and creativity in the Andalusian heritage. One of the axes that were adopted and reached by the study is the presence of a blame woman in Andalusian poetry and the association of blame in many of the poets' poems, which was manifested as an objective equivalent with psychological dimensions to them. The blaming constituted a great place among other forms of poetry. Therefore, the poetry of blaming was the beginning of their poems and the core of their fields came out.

Keywords: **Blame, Beards, Andalusian poet, Andalusian poetry.**

مقدمة:

شغل العَذْلُ مساحة لا تقلّ حجمًا عن أشعار الرثاء والمدح والفخر في أشعار الأندلسيين، وغيرها من الموضوعات التي تطرّقوا لها إبان نظم قصائدهم؛ فلم يكُن طارئًا على أشعارهم بل عبّروا من خلاله عما تضيق به صدورهم؛ فجادت قرائحهم بأعذب أبيات اللّوم والعذل، مصورين أنفسهم عاذلين تارة ومعذولين أخرى، وقد لعبت ظاهرة العَذْل دورًا مهمًا في تشكيل دواوين الشعراء وصرفهم إلى نظم أجود أشعارهم، لا سيما أن الشعر شعور وأن البيئة المُحيطة بالشاعر كانت من أهمّ عناصر تشكيل المعاني لدى الباثّ. فقد أجمعت مناهج النقد الحديثة بأن البيئة لها الدور الكبير في صوغ عباراته، وفتق مشاعره التي كانت في كثير منها ردًّا على عُذّاله، مشكلًا بأشعاره حجة رادعة في الدفاع عن موقفه والردّ على العُذّال؛ كالعذل في الغرام والهيام بمن أحب والعذل في الوطن أو في الفخر أو في المدح، وما تبع ذلك من تصوير نفسه عاذلًا أو معذولًا من خلال مونولوج خارجي وترجمة لما يدور في خَلَجَات نفسه . ومن خلال هذه الدراسة فقد تتشكّل لدى المتلقّي قناعة بأنّ العذل وما لحقته هذه المُفردة من تسميات قد بدت في ظاهرها لكل من يتلقّى النص الأدبي ولكنها أضمرت في أغلب حالاتها لتخفي مكنونات الشاعر ونفسيّته، وهدفت الدراسة إلى الكشف عن دلالة ورود العَذْل واللوم واللّحي في الشعر الأندلسي، واستجلاء الأثر الفني في استخدام الشاعر لهذه الظاهرة ومحاولة فكّ شيفرة استخدام الشاعر للعذل بمرادفاته المختلفة كاللوم واللّحي.

واستقام بناء هذه الدراسة على مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة؛ سُلّط الضوء في المقدمة على بروز ظاهرة العَذل في الشعر الأندلسي وانتشارها بين الشعراء، أُفرِد المبحث الأول للعَذْل واللوم في الشعر الأندلسي وكذلك توقف عند اللّحَى الذي يؤدي غرضًا أشدّ وطأة على نفسيّة الشاعر ومدى ارتباطه بالعَذْل واللّوم، وتوقّف المبحث الثاني عند أغراض العَذل: كالعذل في الحب والوطن والشيب، فيما خصصت المبحث الثالث: لتَوق الشاعر سماع العَذل واستدعاءه للعاذل، بينما جاء المبحث الرابع: في العاذلة وحضورها في الشعر الأندلسي وخاتمة أوردت فيها أهم النتائج التي وصلت لها الدراسة وتوصيات الباحث.

أهمية الدراسة:

تنبع أهمية الدراسة من الكشف عن مضمون أشعار العَذْل في بعض دواوين الشعراء الأندلسيين، وتبيّن الحالة النفسية التي أدّت بالشاعر الأندلسي إلى استحضار العاذل في معظم قصائده، وموضوعها العام في البيت والقصيدة، وتكمن أهمية هذه الدراسة بأنها انفردت في إلقاء الضوء على العَذل في الشعر الأندلسي.

مشكلة الدراسة:

برز شعر العذل في دواوين الشعراء الأندلسيين بصورة كبيرة؛ لكن تجدر الإشارة إلى عدم اهتمام الدارسين بهذا الضَرْب من الشعر الذي ما انفكّ الشعراء عن إقحامه في جُلّ أشعارهم، حيث زخرت دواوين شعراء الأندلس بهذه الظاهرة؛ إلا أنها لم تكُن مِحور عناية، فتبنّت هذه الدراسة استجلاء مواضع العَذْل في الشعر الأندلسي وصفًا وتحليلًا.

منهج البحث:

اعتمد الباحث في دراسته المنهج الوصفي التحليلي في دواوين الشعراء الأندلسيين، وتتبّع الأشعار التي رصدت فيها مفردات العَذْل واللّوم واستجلاء الحكمة من إيرادها، ثمّ الوقوف عند الغرض الذي جاء به الشاعر سواء أكان عاذلًا أم معذولًا.

الدراسات السابقة:

-دراسة خالد ناجي السامرائي(٢٠١٦-م) بعنوان (حوار العاذلة في الشعر القديم)، **مجلة كلية التربية للبنات**، المجلد: ٢٧ /(٣) جامعة بغداد، تناول الباحث من خلال هذه الدراسة الحديث عن العاذلة في الشعر القديم، وتطرّق للتعريف بالعاذلة لغة واصطلاحًا، مقسمًا دراسته إلى بابين؛ تحدث في الباب الأول عن العاذلة ومدى علاقتها ببُنية القصيدة متخللًا حديثه في النزعة الحوارية داخل القصيدة، وخصّص الباب الثاني للحديث عن أغراض العذل، كالعذل على الفقر والعذل على الكِبَر وعذل الفرسان والعذل على الكرم.

-دراسة أسماء بنت عبدالله بن محمد(١٤٢٥هـ -٢٠٠٤م)، بعنوان: عذل الشاعر في الشعر العربي القديم حتى نهاية العصر الأموي، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، المملكة العربية السعودية، تناولت الباحثة فيها موضوع العَذْل في الشعر القديم وجاءت في بابين، شرعت في دراسة موضوعية للعَذْل وبواعثه خلال الباب الأول؛ متمثلًا في الباعث الإنساني والمالي والأخلاقي والاجتماعي، وخصصت الباب الثاني للدراسة الفنية متمثلًا في بناء القصيدة والصورة واللغة الشعرية وموسيقى الشعر.

-دراسة هدى غازي(٢٠١١م) بعنوان: العاذلة في خمريات الأخطل بوصفها معادلًا موضوعيًا، **مجلة كلية التربية الأساسية**، العدد الثاني والسبعون، الجامعة المستنصرية، جاءت هذه الدراسة على ثلاثة محاور، تناولت في المحور الأول: العاذلة في مقدمة قصائد الأخطل، وفي المحور الثاني: عاذلته في حب الخمر، وفي الثالث: تنوعت بين الغزل والمدح.

-دراسة رعد أحمد علي(٢٠١٢م): بعنوان: ظاهرة العذل في الشعر الجاهلي/دراسة تحليلية، مجلة كلية التربية الأساسية، الجامعة المستنصرية-كلية الآداب العدد الخامس والسبعون/الجامعة

المستنصرية، تتبّع الباحث في هذه الدراسة حركة ظاهرة العَذل في المِتْن الشعري القديم، وذلك في محتوى مبحثين؛ خصّص المبحث الأول للشاعر معذولًا؛ على اعتبار أن ظاهرة العذل مؤثر خارجي واجتماعي على الشاعر، بينما خصص المبحث الثاني في الشاعر عاذلا من ناحية نفسيّة؛ متضمنا صراعًا بين بناءات يألفها الشاعر ويحاول الخروج منها فتشكّل اضطرابًا نفسيًّا لديه.

فكانت الدراسات المُشار إليها في الشعر العربي القديم، ولم تتخصص أيّ منها في موضوع العَذْل في الشعر الأندلسي، وبهذا تكون دراستنا الموسومة بـ(ظاهرة العَذل في الشعر الأندلسي-دراسة وصفية تحليلية) قد انفردت في تناولها ظاهرة العَذْل بشكل مستقل في الشعر الأندلسي.

المبحث الأول: (العَذْلُ، اللّوم، اللّحْي) في الشعر الأندلسي:

امتازت العربية بمرونة ألفاظها وبتعدد رديفات مفردتها الواحدة التي تؤدي الغرض ذاته، إلا إن هنالك من الدلالات اللغوية والبلاغية في استخدام كلمة عن أخرى ما يُغني النص ويجعله مشوّقًا، فمصطلحات (العَذل، اللّوم، اللّحي) تؤدي الغرض ذاته في التعبير عن حسّ الشاعر الذي ما انفكّ لائموه وعُذّاله عن استخدامها وذلك حسب ما تقتضيه الحالة النفسية للشاعر أو ما يرتبط بالغرض العام للقصيدة.

العَذْلُ لغة: "عَذَلَهُ يَعْذُلُه عَذْلًا، وعَذّلَه فاعْتَذَل وتَعَذّل: لامَه فَقَبِلَ منه وأعتَبَ. وهُمُ العَذَلَةُ والعُذّالُ والعُذّلُ. ورجُلٌ عَذّالٌ وامرأةٌ عذّالةٌ : كثيرُ العذْل، وفي المَثَل: "أنا عُذَلَة وأخي خُذَلَة وكِلانا ليس بابن أمَة" أي أنا أعذل أخي وهو يخذلني ، وأيامٌ مُعتذلاتٌ : شديدة الحرّ كأنّ بعضها يعْذُلُ بعضًا، فيقول اليوم منها لصاحبه أنا أشدُّ حرًا منك ولم لا يكون حرُّك كحَرّي"، والعَذلُ: الملامةُ[1]، وقيل لذعَه بلسان: أوجعه بكلام[2]. وفي المُحيط: عَذلتُ أعذِلُ عَذلًا فاعتذل: لُمتَه فأعتب. والعذيلةُ: اللوم. واعتذل الحر: اشتدّ، واعتذل عليه: اعتزم[3] .

العَذْل اصطلاحًا: إن العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي لمُفردة العَذل علاقة وثيقة جدًا، فهي بالنهاية تؤدي الغرض نفسه؛ إلا أننا قد وجدنا أنها وردت بعدة دلالات ومردّ ذلك هو السياق الذي صيغ في إطاره سياق النص من شاعر لآخر أو من حالة نفسية لشاعر عن آخر. فاللوم هو محاولة تأنيب المعذول بطريقة عتابية عما يفعل لأجل أمر ما، وغالبًا ما يأتي في باب الحُب والمدح والوصف، بمحاولة من العاذل إشعال فتيل الحسّ الشاعري للمعذول، حيث لم تخرج الدلالة اللغوية لمعنى العذل عما هي عليه في المعنى الاصطلاحي وهو محاولة العتاب واللوم اللاذع الموجه للشخص المعذول وجاء في المَثَل العربي الشهير: "سَبَق السيفُ العذلَ"[4]؛ ويُضرَب لما قد فات، وقد ضمّن الشاعر ابن سهل الأندلسي المعنى العام لهذا المثل في شعره قائلًا:[5]

حَدِيثُ عنقاءَ صَبٍّ أدْرَكَ الأمَلا

حَظّي مِنَ الحُبِّ أني بَعْض ما قُتِلا

أمَا لقدْ نَصَحَ العُذالُ لوْ قَبِلوا

السّيفُ مِنْ لَحْظِ مُوسَى يَسْبِقُ العَذْلا

يعد هذا الشاهد دلالة للاستخدام الاصطلاحي للعذل و لبيان تضمين شعراء الأندلس لمعاني العذل في الموروث العربي.

أولًا : العَذْلُ في الشعر الأندلسي:

كان للعَذل حضورٌ واسعٌ وكبير في الأدب والشعر العربي على امتداد عصوره، كسائر الموضوعات التي تطرّق لها الشعراء في أشعارهم، فلم ينفكّ الشاعر عن خَلْق لغة للحوار بينه وبين رجل أو امرأة يتلقّى خلالها كلمات لاذعة فيها ما يهوى سماعه وفيها ما يلوّعه، أو في افتراء الأقاويل. ثم إنّ الشعراء يتقبّلون العَذْل الموجّه لهم رغم أن هذا العَذل يدخله في كثير من الأحيان تقوّل وإشاعات ما لها صحّة في أصلها، ومن ذلك قول الشاعر:(٦)

قَبِلتُم ما تقوّلَهُ العَذُولُ

ورُدّ بما تحمّلهُ الرّسولُ

وشَقّ عليكم شَوقي إليكُمْ

فَحُلتُمْ والمُتيّمُ لا يَحُولُ

يُستدلّ من الشاهد السابق انتشار ظاهرة العذل في الشعر الأندلسي، فظهر العذل في المدح ومن ذلك قول ابن الأبار في قصيدة مدح بها أبا زكريا وولديه مطلعها (مرقوم الخد مورّده) قائلًا:(٧)

وأُقيمُ العُذرَ لِعُذَّلهِ

في خَوْنِ العَهْدِ فيُقعِدُهُ

كَمْ يُفْرِدُنِي بِالذُّلّ هَوَى

صَلِفٍ بالدّلّ تفرُّدُهُ

وقال ابن هاني الأندلسي في مدح الخليفة المعز لدين الله:(٨)

ما للمهارى الناجيات كأنها

حتم،علىها البَيْنُ والعُدَواء

ليس العجيبُ بأن يُبارين الصّبا

والعذلُ في أسماعِهِنّ حُداءُ

تدنو منال يدِ المُحبّ وفوقها

شمسُ الظهيرة خِدرُها الجوزاء

أبدع الشاعر في توظيف دلالة العذل من خلال ربطه بالحُداء وهو تشبيه صوت من يعذل بصوت الغناء للإبل عند سوقها؛ في إشارة إلى عدم اكتراثه بالعاذل. ويتضح الإصرار لدى ابن الأبار في مواجهة عاذليه بين ثنايا قصيدة في مدح أبي زكريا:(٩)

مَاذا يَرُومُ العَذلُ منيَ مَاذا
أوَ لَيْسَ قَلبِي جَذوَةٌ و جُذاذَا
قالوا عِياذُكَ في السُّلوّ مِنَ الهَوَى
قُلتُ الهَوَ يأخْتَارُ مِنْه عِيَاذا
بأبي مهاةٌ عوّدت ألحاظها
فَرْسَ الأُسودِ فما تُطيقُ لِواذا

إن الرمزية التي يرمي الشاعر بها تجاه العذل جعلته يوجه الاستفهام فيه بداية الشاهد مستخدمًا التوكيد اللفظي في أداة الاستفهام (ماذا) بقوله (ماذا يروم العذل مني ماذا؟) في دلالة على عذله المستمر، ومنها ما جاء في نقل الإشاعة وإقرار الشاعر بصحتها وذلك من باب النكاية بالوشاة كما ورد عن ابن سهل قوله:(١٠)

أشَاعُوا أنّنِي عَبْدٌ لِمُوسَى
نَعَمْ صَدَقوا عَلَيّ بِمَا أشَاعُوا
وَقَدْ سَكَتَ الوُشَاةُ اليَوْمَ عَنّي
أَقرَّ الخَصْمُ وارتَفَعَ النّزَاعُ

توقف الوشاة عن الحديث عنه يظهر من خلال استخدام الشاعر التحقيق بـ (قد) بعد مُضيّ مرحلة يبدو أنها طويلة ويستدلّ على ذلك بعد أن أقرّ من يخاصمه بذلك.

ومن معاني تضمين آيات القرآن الكريم يطالعنا ابن سهل سبب حبه موسى مستحضرًا قصة امرأة العزيز بعد أن لامها نسوة في حبها سيدنا يوسف فأمرت أن يخرج عليهن وهنّ يحملْنَ سكينًا، قال تعالى:﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[يوسف:٣١]، حيث يقول في باب نَهْي العُذال عن حبه لموسى:(١١)

كَمْ نَهَانِي عَنْ حُبِّ مُوسَى أُنَاسٌ
عَذَلُونِي فَإنْ بَدَا غَدَرُونِي
أكْبَرُوهُ فَلَم تُقَطّع أكُفٌ
بِمِدَىً بَلْ قُلُوبَهُم بِجِفُون

واستحضر الشاعر من المعاني الأخرى في الغرض نفسه من باب حبه لموسى ومحاولة إبعاد عيون العذّال عنه:(١٢)

مَا ضَرّ مُوسَى لو يَشُقَّ مَدَامِعِي
بَحْرًا فَيُغْرِق عَاذِلِي وَرَقِيبِهِ

متمنيًا أفول العاذل والرقيب عن وجه الأرض مستحضرًا قصة غرق فرعون الذي كاد لسيدنا موسى عليه السلام فكانت نهايته الغرق، وأما ابن حمديس فيبين ذلك العَذل الذي يخلو من الرأفة في حاله:(١٣)

أَغُمْرَ الهَوى كَم ذا تقطعني عَذلًا
قَتَلتَ الهوى عِلمًا أتقتُلني جَهلا
أظُنُّك لم تُفتح عَلَيك نواظِرٌ
إذا هي أعطَت صَبوةً أخَذَت عَقلًا

مشيراً إلى عدم الرحمة به غير مرّة من قبل الكواشح والعُذّال الذين لم يتركوه بحاله واستخدام الشاعر فعل النهي من قبل الكواشح والعُذال دلالة على عدم تركه بحاله:(١٤)

نَهَتِ الكَواشِحَ عَنْهُ والعُذّالا
فكأنّما مَلأتْ يَدَيْهِ وِصَالا
أتظُنّها رَحِمَتْهُ من ألَمِ الجَوَى
لُخَلخَلٍ يَسْتَرْحِمُ الخِلخَالا

والكواشح: هي جمع كاشحة ومؤنث الكاشح وهو مُضمِر العداوة، وكشحَ له بالعداوة: عاداه ككاشحه(١٥). وقد يستدلّ على ذلك وجود الأعداء الكُثر بجانب العُذّال، وأما ابن الأبّار فيصف عذل العاذل بمن يضرب بالحجر لكي تخرج النار منه في دلالة على حجم الأسى والألم الذي يتركه العذل في نفس المعذول لحرارة شوقه:(١٦)

ومُقتَدحٍ بالعَذْلِ زَنْد صَبَابَتِي
يُشيرُ بِما يُسْلي وَقَدْ شَرِيَ الوَجْدُ
ويَدْعُو إلى الإغفاءِ طَرْفًا مُؤرَّقًا
وبِالقَلْبِ ما يُثنيهُ عَنْه ، ومَا يَعْدو

ينعكس أثر ذلك العذل على نفسيته كالنّار التي أُضرِمت في هشيم، ويبرع الشاعر في إقحام التشبيه التمثيلي بين صدر الشاهد وعجزه من خلال صورتين جاءت الأولى لتصف حرارة شوقه الناجمة عن النار المُشتعلة جرّاء اقتداح الزند بصورة مقابلها وهي ظهور آثار ذلك الشوق و شدة

الحب على حالته. ولا بُدّ أنه قطع المسافات الطوال التي تحتاج لعدّة ليالٍ وصولًا لمن يهوى وكل ذلك بكتمان عن العاذلة خشية اللّوم والعذل:(١٧)

و كَمْ لَيَالٍ قَطَعْنَاهَا بِكاظِمَةٍ
نَجْوَى وشَكْوَى بِمَا يَلقاهُ مُضْنَاكِ
كَتَمْتُ مَسْراكِ فيها خَوْفَ عَاذلةٍ
و عاذِلٍ فأذاعَ المِسْكُ مَسْراكِ

إلا أن رائحة المسك التي تفوح أذاعت الخبر ولم يُجدِ الكتمان عن إخفاء المسير حيثما نوى.

ثانيًا: اللّحي في الشعر الاندلسي:

ارتبط مفهوم اللّحي باللوم كثيرًا وهو بمعنى العَذل إلا أن اللّحي أقرب إلى المُخاصمة والمنازعة، جاء في اللسان: (لحى الرجل لحوًا شتمه) وقال أبو عبيدة لحيته ألحاه لحوًا، وفي الحديث نهيت عن ملاحاة الرجال أي مقاولتهم ومخاصمتهم وهو من لحيت الرجل ألحاه لحيًا إذا لمته وعذلته. وفي حديث لعثمان: (فلحيًا لصاحبنا لحيًا، أي لومًا وعذلًا ولحا الرجل لحيًا : لامه وشتمه وعنفه وورد في المثل: (من لاحاك قد عاداك) وقال عن الأصمعي قوله: الملاحاة بمعنى الملاومة والمباغضة، ثم زاد ذلك حتى جعلت كل ممانعة ومدافعة مُلاحاة، واللحاء يعني : اللعن واللحاء العذل. واللواحي كذلك تعني العواذل.(١٨)

ودلالة استخدام مصطلح اللّحْي تتواءم والمعنى اللّغوي في الموروث العربي بوجه عام، ومن الشواهد الشعرية التي وردت في دواوين الشعراء وقد بدت لغة التأنيب واضحة في قول ابن عبدربه:(١٩)

بَكَرَتْ عَليّ عَواذِلِي يَلْحَيْنَنِي
وعَلَى الّذي لَمْ يُعْدِنِي أعدَيْنَنِي
إيهًا عَليكَ فَقَدْ كَبِرْتُ عَنِ الصّبَا
ونَهَى المَشِيبُ عَن الذي يَنْهَيْنَنِي
وعلى مُفَارَقَةِ الشّبَابِ شَمَتْنَ بِي
وعَلَى مُعَادَاةِ الصّبَا عادَيْنَنِي

تبلورت في الشاهد عدّة دلالات خلال الحِوار الذي دار بينه وبين عذّاله منها: عَذْل الشاعر لنفسه وتوبيخها على خوض غِمار الحُب في سن متأخرة فكان المشيب هو ذاته العاذل، وأن هنالك العاذلة الأنثى وليس فقط العاذل الرجل مع وجود عدة عاذلات وليست واحدة فقط، يتضح ذلك من قوله (عواذل) واتباعها بنون النسوة في الأفعال (يَلحَينَني، أعدينَني، يَنهَينني، عادَيْنَني)، وأما استخدام

الشاعر لفظة (بَكَرَت) في مطلع الشاهد السابق فيدلّ على قيام العاذلات عليه منذ الإصباح وكأنه شغلهنّ الشاغل، وقد شمتْنَ به بعد أن أصبح كهلًا ولا يَقوى على ما أقدَمَ عليه.

وقد ارتبط مفهوم اللّحي بالمرأة كما ورد في الشاهد السابق وفي ذلك دلالة على اقتران عَذْل المرأة بالخصومة مع الرجل أو إسماعه كلمات أشدّ قسوة مما يعذل به الرجل فهذا ابن خفاجة يرفض إطاعة عاذلاته بعد أن وجّهنَ له العَذْل وهنّ يجهلْنَ ما به من ألم:(٢٠)

وكَمْ قَدْ لَحَتْنِي العَاذِلاتُ جَهَالَةً
ويَأبَى المُعَنّى أنْ يُطيعَ اللّواحِيَا
فقُلْتُ لَهَا إنّ البُكَاءَ لَرَاحَةٌ
بِهِ يَشْفِي مَنْ ظَنّ أنْ لا تَلَاقِيَا
ألا إنّ دَهْرًا قَدْ تَقَاضَى شَبِيبَتِي
وصَحْبِي لِدَهْرٍ قَدْ تَقَاضَى المَرَازِيَا

موضحًا لهنّ أن البكاء راحة وسبيل للتنفيس عن حالته جاعلًا منه شفاءً وراحة بعد الفراق. وفي إطار اللّحي يُجري ابن سهل حوارًا بأسلوب سرديّ شيّق مع أحد عُذّاله مع احتمال بأن اللاحي هو مجرد شخص من صنع خيال الشاعر ولا وجود له:(٢١)

يَقُولُ لِيَ اللاحِي وقَدْ جَدّ بِي الهَوَى
لِيُلْهِمَنِي في سُوءِ تَخْييلِهِ الصّبْرَا
ألَمْ تَرْوِ: قَطْ اصْبُرْ لِكُلّ مَهَمّةٍ
فقُلْتُ أمَا تَرْوِي: لَعَلّ لَهُ عُذْرَا
إذا فِئَة العُذّالِ جَاءَتْ بِسِحْرِهَا
ففِي لَحْظِ مُوسَى آيةٌ تُبْطِلُ السِّحْرا

مبررًا تقربه ممن يُحب بدفع اللاحي عليه بالصبر و بخلق الأعذار التي يراهن من خلالها أن العُذّال سوف يقومون بعَذله أيضًا.

ثالثًا: اللّوم في الشعر الأندلسي:

بيّن ابن منظور معنى اللّوم في لسانه بأنه: (اللّوم واللوماء، واللّومَى واللائمة العَذْل لامه على كذا يلومه لومًا وملامًا وملامة ولومة ولَومة فهو ملوم و مَليم استحق اللّوم وقد يلام على أمر قبيح كما يلام على أمر حميد)(٢٢). وورد ذُكِر اللّوم في القرآن الكريم غير مرّة، لكنه جاء بمعنى مُغاير لمعاني العَذل التي وردت بدلالة اللوم كما هي في الشعر، قال تعالى:﴿فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾[ابراهيم:٢٣]، وقال تعالى: ﴿لا أقسم بالنفس اللوامة﴾[القيامة:٢]، هذا و يرتبط المعنى العام

للعَذْل بمعنى اللّوم، وجاء اللوم في الشعر بدلالة العَذل والعكس صحيح، فورد في أبواب عديدة منها باب المدح كقول الشاعر:(٢٣)

أقِلّوا عَلَيْهِم لا أبَا لأبِيكم
مِنَ اللّومِ أو سُدّوا المكانَ الّذي سَدّوا
أولئك إنْ نِمْنا سَرَى في صَلاحِنَا
سِجَاحٌ عَلَيْنا كُحْلُ أجْفَانِهِم سُهْدُ

أي خففوا اللوم عليهم أو املأوا الفراغ الذي ملأوه، ويخاطب ابن عبدربه لائميه مستنكرًا لومهم له:(٢٤)

أيّها اللائمون مَاذا عَلَيْكُم
أنْ تَعِيشُوا وأنْ أموتَ بِدَائِي

يتضح من خلال استخدام الخطاب المباشر في حواره مع لائميه قربهم منه وعذلهم له عن قرب. ولابن الأبّار في نفس الغرض:(٢٥)

مَنْ شاءَ في مَدْحٍ غُلُوًّا فلْيَكُنْ
في مَدْحِهِ مِنْ غَيْرِ لَوْمٍ غَالِ
لَمَا لَثَمْتُ يَمِينَهُ و رَأيْتَهُ
لَمْ ألتَفِتْ لَحَيًا ولا لِهِلالِ

ويقول أبو حيان في باب اللّوم وعذله فيمن أحبّ قائلًا:(٢٦)

يا قاسِيَ القَلْبِ لَيْسَ اللفْظُ مَطْمَعهُ
ساجِي الجُفون حَنين اللّحْظِ راحِمَهُ
يلومُه ليس يَدْري مَنْ يَهيمُ بِهِ
لكِن يَراهُ حَزينَ القَلبِ هائمَهُ

فتتكشّف أسباب اللوم لدى أبي حيّان بهيامه بمن عذله، وأما ابن زيدون فإنه يميط اللثام عن سرّه ويعلنه، وحجّته بأن هيامه بمن أحب هو عذره وحجته القاطعة فلن ينفع لوم اللائمين:(٢٧)

سِرّي وجَهْرِي أنّني هَائِمٌ
قائِمٌ بِكَ العُذْر فلا لائِمُ

فالعذر عنده قائم ولا لوم على ذلك، وأما ابن سهل فإنه يبين للمتلقي أنه على حق قائلًا (٢٨):

لامُوا فلمّا لاحَ مَوْضِعُ صَبْوَتِي
قَالُوا لَقَدْ جِئتَ الهَوَى مِنْ بَابِهِ

فبعد أن شاهدوا ما همّ به ابن سهل تيقنوا أنهم على خطأ، وأنشأ ابن الأبار قائلًا لما غضب عليه أبو زكريا يتوسل بولي العهد محمد للعفو عنه:(٢٩)

أُسَلّمُ للمَقْدورِ ثُمّ أُسلَمُ
ويَطْعَنُ جُثمَانِي وقَلبِي مُخيّمُ
تَجَاذبَهُ أمْران مُرّان فاعْجَبَا
غرَامٌ صُرَاحٌ واعْتِزامٌ مُصَمّمُ
بِعَيْشِكُمَا لا تُثقِلاهُ مَلامَةً
فما خفّ حتى طال منهُ تَلَوّمُ

مُقسمًا على اللائمين ألا يثقلاه بكثرة العذل واللوم في دلالة الحيرة التي وقع رهين لها وهي غرامه وتصميمه واعتزامه على الشيء، وأما العَذْل واللوم فتجمع بينهما ارتباطات دلالية بدت واضحة من خلال السياقات الشعرية في الشعر الأندلسي:(٣٠)

و لَلْعَوَاذِل عَنّانِي تصَنُّعُهَا
كمَا تُعنّي الخُصُورَ الهيفَ أكْفالُ
هَيهَات أُعْذَلُ في بَيْتْ الهَوَى نَسَبِي
فَفِيمَ يكثُرُ لُوّامٌ و عُذّالُ

كشف للمتلقي أن علاقة اقتران العذل مع اللوم تتباين مع إيراد الحجّة في كثرة لائميه وعُذّاله، ويُحاور أبو حيان من لامَه بسبب انعزاله عن الآخرين مستخدما النداء القريب في إشارة إلى قرب العاذل منه:(٣١)

أعاذِلَ ذَرْنِي وَانْفِرادي عَن الوَرَى
فَلَسْتُ أرَى في هَمّ صَدِيقًا مُصَافيا
نَدَامَاي كُتبٌ أسْتَفِيدُ عُلومَهَا
أحبّاي تُغْني عَنْ لِقائي الأعَادِيَا

وقد أشار إليه صراحة ويبدو أنه صديقه، إلا أنه لم يجد الصديق الوفي فاتّخذ الكتب نديمًا له؛ لما لها من فوائد جمّة تغنيه عن لقاء ممن وصفهم بالأعداء، ويدعو ابن سهل إلى عدم الاستجابة لأصحاب اللّوم مستخدمًا أسلوب الترخيم في ندائه خليله:(٣٢)

رَعْ بِجَيْشِ اللذّاتِ سِرْبَ الشّجُون
وخُذْ الكاسَ رَايَةً بِاليَمِين
لا تُجيبَنّ بِالرّضَا أهْلَ لَوْمٍ
صَاحِ واقْلِبْ لَهُم مِجنّ المُجُون

والترخيم في اللغة العربية يستخدم للتحبب والترقيق حيث يتودد لصاحبه بأن يتحرر منهم، بل وينقلب عليهم ويعاديهم ويتضح ذلك من خلال قوله: (واقلب لهم مِجنّ المجون)، وهذا ابن حمديس يوضح ذلك مستدلًّا بمقابلة بين العتب الموجه إليه باستفهام استنكاري بأن يُستدلّ على الحرب بالسلمِ:(٣٣)

ما في عِتابِكِ مِن عُتْبَى فأرْقُبُها
هَلْ يُسْتدِلُّ عَلى سِلْمٍ بِهَيْجاء
ولا لِوعْدِك إنجَازٌ أفوز بِهِ
وكيْف يُروِي غَليلًا آلُ بيداءِ

تظهر لغة العتاب في الشاهد من خلال مقارنة عقدها الشاعر بين الوفاء بالوعد وربطها بالاستحالة، وحجته بذلك أنه متعطش ولن يروى وذلك بوصف من قصد بجفاف المشاعر تجاهه وكأنه صحراء.

المبحث الثاني: أغراض العَذْل في الشعر الأندلسي

تعددت الأنساق الأدبية والأغراض الشعرية التي تناولها الشاعر الأندلسي إبان نظم القصائد والمقطوعات التي احتوت في مضمونها الظاهر والباطن على معاني العَذلْ؛ وتجلّت معانيه الباطنة والظاهرة في الكشف عن الدلالات الرمزية في الأشعار والمقطوعات وبما يليق مع المُحتوى العام للقصيدة.

ومما لا بُدّ من الإشارة إليه هو أن أغراض العَذْل لم تتوقف عند اتجاه واحد، بل تعدته حسب الجو العام للقصيدة؛ فمن أشعار الغزل والحُب تولّدت معاني اللّوم والعَذل. وكذلك كان حال العَذل في حب الوطن، وحضوره في معظم القصائد والأشعار في جميع مصادر الأدب العربي وتراجمه، حتى استحوذ على حصة كبيرة جدًا في محتواه.

أولًا :العَذل في الحُب

امتدّ شعر النسيب والحُب في شتّى عصور الأدب العربي، ولم ينحصر في عصرٍ دون آخر، وما زاد هذا الغرض من الشعر لوعة؛ هو ما يلقاه الشاعر من عَذْل ولَوْم فيمن أحبّ، وشعر الأندلس ما هو إلا امتداد للشعر العربي بأصوله وقواعده. ومن ذلك استحضار ابن الأبّار لأكثر قصص الحُب انتشارًا في الموروث العربي، قصة حب جميل لبثينة في دلالة على عدم اكتراث المُحب لما يقوله العاذل:(٣٤)

تَمَكّنَ مِنْ مسامِعَهِ العَذُول
فقال وأنت تَدري ما يقول
وقَدَرَ أنّي أسلُو هَواهَا
وهَل يَسْلو بُثينتَه جَميلُ؟

مَعَاذ اللهِ مِنْ تَصْدِيقِ وَاشٍ
يُخَبّرُ كَاذِبًا أنّي مَلُولُ

فيُنكر الشاعر على من يتهمه بنسيان محبوبته واصفًا إياه بالواشي الذي ينقل الحديث للكاذب، ويوجه ابن عبدربه حديثه لأحد عُذاله في الحب مستخدمًا أسلوب النداء للبعيد في دلالة على عدم رغبته في التقرب إلى ذلك العاذل:(٣٥)

أيا مَنْ لامَ في الحُبّ
ولَمْ يَعْلَمْ جَوَى قَلْبِي
مَلامُ الصّبّ يُغْوِيهِ
ولا أغْوَى مِن القَلْبِ
فأنّى لُمْتَ في هِنْدٍ
مُحِبًّا صَادِق الحُبّ؟

فلَوم المُحب في رأيه يزيد من غوايته، وأما العَذل في نظر ابن الأبّار فما هو إلا كالذي يتكلّم كثيرًا ولا يعمل شيئًا:(٣٦)

قَيْسِيّةٌ صَبُّهَا يَمَانِيُ
تُجْزِيهُ بِالحُبّ مِنْهُ ضِغْنَا
زُخْرُفَةُ العَذْلِ في هَوَاها
جَعْجَعَةٌ لا تُفيدُ طِحْنَا

مقتبسًا حديثه من المثل الشهير (مالي أسمعُ جَعْجَعَةً ولا أرَى طِحْنا)(٣٧)؛ ويُضرب لمَن يعِد ولا يفي، فقد برع الشاعر في توظيف هذا المثل في بناء السياق العتابي مما تزخرف هذا الربط الدلالي في نظم الشاهد على هذا النحو. ويحاجج ابن الأبّار قومه الذين يطلبون منه الابتعاد عمّن أحب:(٣٨)

يقولُ قَومٌ تَعَزّ عنْها
كيفَ وقَدْ عَزّني العَزَاءُ
فلمْ تَجِدْ عَن حُبّها فأسْلو
وليس لي في الهَوى ادّعَاءُ
وهَبْتُ لِلغانِياتِ ذَحْلي
فَليصْنعْ الحُبُّ ما يشَاءُ

وهو هائم بمحبوبته ولا يكفّه العذل عن هواها ولا يستطيع أيّ من يكون أن يُبطل حبه لها:(٣٩)

أهِيمُ بِهَا ولا عَذَلٌ
يُنَهْنِهُني ولا فَنَدُ
هَواهَا جَلّ في خَلَدي
فَيَا مَا أُودِعَ الخَلَدُ
وصَبري بَانَ مُذ بَانَتْ
فأنّى الصّبْرُ والجَلَدُ
وكُنتُ أصِيحُ: وَا كَبْدِي
وكيفَ؟ وليسَ لِي كَبِدُ
وقالوا: قلبُها حَجَرٌ
فقلتُ: وثغرُهَا بَرَدُ

استخدم الشاعر أسلوب النُدبة وقرنه بصوت النداء العالي في الردّ على العاذلين، ودافع بقوة عمن يهيم بها، فرغمًا عن وصفها بأنها لا تُبالي به وأن قلبها كالحجر إلا أنه صابر على البعد على فراقها، ويردّ أبو حيان على عاذليه الذين تعجبوا منه بسبب مَيْل قلبه لأكثر من امرأة:(٤٠)

تَعَجّبَ نَاسُ مِنْ غَرامي ومِنْ وَجْدِي
بِريمَينِ والمَعْهودُ عِشقُ رشاَ فَرْدِ
وقالوا صَوابًا ليس قَلبانِ لِلفَتَى
ولا يُجْمَعُ السّيفَان وَيْحَك في غِمْدِ
وما عَلِموا سِرّ الهَوَى وصُنوفَهُ
وإنّ فؤادَ الصّبِ مُتّسِعُ الودِّ

يظهر سرد أبي حيّان للحوار الذي دار بينه وبين عاذليه في الشاهد السابق وإدحاض حُجَجِهم بحجته التي طغت على تفكيره. بينما يفنّد ابن الأبار عُذّاله بتعريفه للحُب:(٤١)

وما الحُبُّ إلا ما طَوَيْتُ جَوانِحِي
عَليه فأبْدَتْهُ المَدامِعُ سُجّما
أُلامُ عَلى لَيّ العِنانِ إلى اللّوى
وأُعْذَلُ في حَومِ الجَنانِ على الحِمَى
خَليليَّ لا أهْوَى الخَليّ من الهَوَى
يُفنّدُ عُشّاقاً ويُسعِدُ لُوّمَا

فهو يوضح أسباب توجيه العَذل له، لكنه يرفض إلا أن يأتي بالحجّة ردًا على تقوّلهم عليه. وربما حاول الشعراء أن يجدوا المبررات المقبولة فطرحوها عبر حوار مع عاذليهم. مما يبدو أن الشعر في

هذه المواقف التي يفقد فيها الشاعر حالة التكيّف، ليتحول شعره إلى وسائل دفاعية لذات الشاعر تحميه، لأن الشعر قادر على أن يوفر خاصية التبرير أو التفسير، أي أن يتحوّل الشعر إلى محاولة إقناع الذات بأن السلوك مقصود ومدبّر[٤٢]، فلذّة ما يخلّف الحُب من آهات ولوعة تتشابه وما يعقب شرب الخمرة من إذهاب للعقل:[٤٣]

يقولون أتْبَعْتَ الصّبا آهةَ الهَوَى
فَقُلْتُ ارتشافُ الرّاحِ يَتْبَعه السُّكْرُ

فيما يستخدم ابن حمديس كم الخبريّة لإفادة تعدد اللائمين في صدّه عما أقبل عليه وما يُتلى على مسامعه من عَذْل رادًّا بحجته وهي أنه عاجزٌ أمام من يهوى، مستعيرًا صفة الثلج في ذوبانه لما يلاقيه من حرارة الجوى والشوق للقاء من يحب:[٤٤]

صَبٌّ يذوبُ إلى لِقاءِ مُذيبهِ
يَسْتَعذِبُ الآلامَ من تَعْذيبِهِ
عَمّى هَواهُ عَنِ الوُشاةِ مُكتّماً
فَجَرَتْ مَدامِعُهُ بِشَرْحِ غَريبهِ
كَمْ لائِمٍ لِلسّمْعِ يَدْفَعُ لَوْمَهُ
والقَلْبُ يَدفَعُ قَلبَهُ بِوَجِيبِهِ

ويجد الشاعر في تعذيب من يهوى راحة وتلذذًا، وتظهر محاولة كتم أخبار حبه في قوله: (مُكتّمًا هواه عن الوشاة) لكن دموعه التي انفجرت من عينيه فضحت أمره. ويشتكي ابن حمديس صراحة من أولئك الوشاة وتقوّلهم عليه واصفًا العذل الموجّه إليه بالعذاب:[٤٥]

فَمَنْ لِقَتِيلٍ بِالقَتُولِ وَقَدْ غَدَتْ
وسَائِلُهُ مَصْرومَةً مِنْ وَسَائِلِهِ
ووقفَةِ رُؤْدٍ[٤٦] بَضّةِ الجِسْمِ غَضّةٍ
لِتَوْديعِ صَبٍّ شاحِبِ الجِسْمِ ناحِلِهِ
شَجٍ كان مِنْ قَبْل التّفَرُّقِ يَشْتَكِي
نَمِيمَة واشِيهِ وتَعْذِيبِ عَاذِلِهِ

بينما لا يُصغي أبو حيان لملام عاذله رغم دموعه المنهمرة في ديمومة غير منقطعة بسبب وقوعه في هوى إحدى الحسناوات، قائلًا:[٤٧]

مَا لِدَمْعِي سَاجِمًا كالغَمَامِ
ولِجِسْمِي ناحِلًا بِالسِّقَامِ

صَابَنِي منْ شَادِنٍ سَهْمُ لَحْظٍ
ففُؤادِي دَائِمُ القَرْحِ دامِ
وصَدِيقي لائِمِي في هَواه
لَسْتُ فيهِ سَامِعًا للمَلامِ
قالَ مَوْتٌ عَاجِلٌ لِمُحِبٍّ
قُلْتُ إنّي رَاغِبٌ في الحِمَامِ

فأبو حيان لا يأبه بأقوال العذول في تلك التي يهوى:(٤٨)

يقولُ ليَ العَذُول ، ولَمْ أُطِعْهُ
تَسَلّ فقد بَدَتْ لِلحُبُ لِحْيَه
تَخَيّل أنّها شَانَتْ حَبيبي
وعِنْدِي أنّها زَيْنُ وَ حِلْيَه

وينهى ابن الأبار عن عذل المحب بالهوى:(٤٩)

لا تَعْذُلوهُ عَلى الهَوَى فَمَدَارُهُ
وكَفَاهُ عُذْرًا حَيْثُ طَابَ مُرادُهُ

والعاذل كان بمنزلة الرقيب الذي لم يترك العاشق بحاله بمفردات العذل التي كان يوجهها له، حيث يُعد الحُب من أغزر ألوان الشعر التي تعرض الشعراء جراءها للعَذل، فبرعوا في شعر النسيب الذي يصف الحالة النفسية التي أصابتهم، في حوار سردي فيه العاذل والمعذول.

ثانيًا : العَذْلُ في حُب الوطن

شكّل شعر الحنين إلى الوطن مساحة واسعة في الموروث الشعري على امتداد عصور الأدب العربي، وقد كان الشعراء يتنقلون من بلاد لأخرى لأسباب كثيرة، منها ما وقع عليهم من الظلم، ومنها ما تفرضه عليهم طبيعة حياة البادية والترحال كالبحث عن مصادر المياه والرعي لدوابّهم ، وأخرى تتعلق بالحروب والغزوات. ويطالعنا ابن الأبّار في صناعته لحوار يبدو أنه لاقى فيه الملامة على ابتعاده قائلًا:(٥٠)

يا أهْلَ وِدّي لَمْ أرُمْ تَدانِيًا
مِنْكُم ودارُكُم تَبِينُ و تَنْزَحُ
إنْ كانَ جِسْمِي شَطّ عَنْ مَثْواكُمُ
فالقَلْبُ ثَاوٍ بَيْنَكُم لا يَبْرَحُ
هذي الجَوانِحُ بِالجَوَى مَمْلُوءةٌ
مِمّا أمِيلُ لَكُمْ ومِمّا أجْنَحُ

لا تَحْسَبوا الرّيحَ السّمُومِ هي التي
هَبّتْ عَليكُم في الهَوَاجِرِ تَلْفَحُ
أنفاسِي الصُّعَدَاء تِلكُم هاجَهَا
شَوقٌ إليكم بالفؤادِ مُبرّح

شرعت لغة الخطاب في تودد الشاعر ممن هم الأقرب إلى عاطفته وذلك بسرد الأحداث وإشارته بشوقه لمن ابتعد عنهم . فما زال الحنين إلى معاهد موطنه يهيّج مشاعره داعيًا إلى ترك لومه إذا ما نوى الرجوع إلى دياره:(٥١)

بِعَيشِكَ عَاطِنِي أنْبَاءَ دارٍ
بِهَا أغْنَى عَنِ القَدَحِ المُدَارِ
إذا قرُبتْ يَهِيجُ لَها اشتياقي
وإنْ نَزَحَتْ يُمثّلُها ادّكاري
وَدَعْ لَوْمِي إذا أبْصَرْتَ مَيْلِي
فَسُكْرُ الشّوْقِ مِنْ سُكْرِ العُقارِ

يصوّر الشاعر في الشاهد نفسه ثَمِلًا بشوقه لوطنه، تمامًا كمن يثمل بعد تعاطي العُقار(الخمرة)، ويدعو ابن الأبار البواكي أن تبكي عليه بسبب إخراجه من وطنه:(٥٢)

لامَ المُحِبّون الفُراقَ و لُمْتُهُ
لكِنّهُم سَئِمُوا و لمّا أسْأمِ
ظَعَنوا وهُمْ قَدْ وَدّعوا أو سَلّمُوا
وَ ظَعَنْتُ غير مُودّعٍ و مُسلّمِ
فَعَليّ فَلْتَبْكِ البَواكيّ إنّني
أُخْرِجْتُ مِنْ وطَنِي ولَسْتُ بِمُجْرِمِ

ولم يعُد ابن الأبّار مألوفا كسابق عهده بل تفرّد به العاذلون وعذبوه بكلامهم، صانعًا في مضمون ذلك الحديث مقابلة بين المُحب لوطنه والمُحب للحسناوات:(٥٣)

يا مَنْزِلاً كان الحِفاظُ يُجِلّهُ
والجُودُ بِالضّيْفانِ فيهِ يُرَحّبُ
أهْوَى حُلُولَك ثُم يَسْلُبُنِي الهَوَى
أنّ العَدوّ بِجَانِبيك مُطَنّبُ
أصْبَحْت فِيكِ مُعذّلًا و مُعذّبًا
وَكَذا المُحِبُّ مُعَذّلٌ ومُعَذّبُ

وقد اجتمع القوم على محاولة تخطئة ابن الأبّار ومسارعة اللّوام إلى إدحاض حجّته بسبب حبّه وهواه للعامرية:(٥٤)

يُفنِّدُنِي في العَامِرِيّةِ لُوّمي
وليس هَواهَا بِالحَدِيثِ المُرَجّمِ
يُريدُون بِي عَنْ شِرْعَةِ الحُبّ رِدّة
وَمِن دُونِها إخْلاصُ قَلْبٍ مُصَمّمِ

فتشكّلت أشعار العَذل في حب الوطن في دواوين الشعراء الأندلسيين لتكتمل بذلك العلاقة الوطيدة بين سائر أغراض شعر العَذل.

ثالثًا: العَذْل في الشيب

نظم الشعراء الأندلسيون الشعرَ في شتّى الأغراض الشعرية ولم تقتصر الأنساق الشعريّة على غرض دون غيره، ففاضت قرائحهم في باب غزو الشيب لشبابهم وما وجدوه من العذال واللوام على تقدمهم في السنّ وعدم تحوّلهم عن أفعال الصّبا، فلم يتركوهم وشأنهم بل رصدوا تحركاتهم وأشعارهم وعذلوهم. فتقوّل ابن عبدربّه على نفسه صانعا حوارا في باب عقده في مُضيّ الصحة والشباب:(٥٥)

قالوا: شَبابُك قَدْ مَضَتْ أيّامُهُ
بِالْعَيْشِ قُلْتُ: وَقَدْ مَضَتْ أيّامِي
لله أيّةُ نِعمَةٍ كان الصِّبا
لوْ أنّها وُصِلَتْ بِطُولِ دَوَامِ
حَسَرَ المَشيبُ قِنَاعَهُ عَن رَأسِهِ
وصَحَا العَواذِلُ بَعْد طُولِ مَلامِ

ويأتي حديث ابن الأبار في مونولوجه الداخلي مجسدًا شخص العاذل، طالبًا من نفسه التمهل في الخوض في غمار الشوق للحسناوات والغرام بهنّ بعد أن ودّع عمر الشباب:(٥٦)

أحقًّا طَرَبْتَ إلى الرَّبْرَبِ
ومُذْ شَطّتِ الدّارُ لَمْ تَطْرَبِ
رُويدكَ أعرَض عنك الشبابُ
وحَسْبُك بالعارضِ الأشيبِ
فكيفَ تَعِنُّ لِعَيْنِ المَهَا
وتُشْرِقُ للمُشْرِقِ الأشنَبِ

وإنّ الغَرامَ عَلى كِبْرَةٍ

لإحْدَى الكَبَائِرِ فاسْتَعْتِبِ

فقد ذهب الشباب بلا عودة وغزا الشيب مفترق رأسه، مستنكرًا أن ينعم بحياته بعد نفاد صبره وقد قابل ذلك الاستنكار بعدم نفع العذل أن علمته سنين حياته ومر به العمر وحجته بذلك:(٥٧)

فكيف يَطِيبُ العَيْشُ والصّبْرُ مَيّتٌ

وكيفَ يُفيدُ العَذْلُ في غَمْرةِ الصّدِّ

تُوَبّخُنِي الأحْداثُ والشّيخُ عَاذِرِي

على سَفَهٍ في الحُلمِ يا حَسْرَتِي وَحْدي

مستنكرًا أن ينعم بحياته بعد نفاد صبره وقد قابل ذلك الاستنكار بقناعة فحواها عدم الجدوى من العذل، بعد أن واجهه الصدّ ووبّخته السنون مشبعًا بالحسرة على ما فاته من الشباب. ومن مظاهر استحضار الماضي والوقوف على الأطلال يطالعنا الشاعر ابن عبدربه عاذلًا نفسه:(٥٨)

لا تَبْكِ لَيْلَى ولا مَيّـهْ

وَ لا تَنْدُبَنْ رَاكِبًا نيّـهْ

وبِكَ الصِّبا إذ طَوَى ثَوْبُهُ

فلا أحَدٌ ناشِرٌ طَيّـه

ودَعْ قولَ باكٍ على أرسُمٍ

فليس الرُّسومُ بمُبكيّهْ

خَليليّ عُوجَا عَلى رَسْمِ دَارٍ

خَلَتْ من سُلَيْمَى ومِنْ مَيّهْ

وعلى المنوال نفسه يعارض أبو حيان قصيدة كعب بن زهير قائلًا:(٥٩)

لا تَعْذُلاه فَمَا ذُو الحُبِّ مَعْذُولُ

العَقْلُ مُخْتَبِلٌ والقَلْبُ مَتْبولُ

حيث نظم كعب بن زهير في سيدنا محمد ﷺ قصيدة مطولة ومطلعها:(٦٠)

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول

متيم إثرها لم يُجز مكبول

ويبدو ابن عبدربه عاش أزمة تكشفت ملامحها بإشارته لعاذليه بأنه عاش فترة طويلة من الزمن ولا يرغب بالمزيد، فوَهَت شدّتهُ وبليت جدّتَهُ وهو آخر شعر قال، ثم عثر في أذيال الردى وما استقال(٦١)، ومما قاله في ذلك:(٦٢)

كِلانِي لِما بِي عَاذِلِيَّ كَفَانِي
طَوَيْتُ زمَانِي بُرْهةً وطَوانِي
بَلَيْتُ وأبلَتني الليالي وكرُّها
وصرفانِ للأيّامِ مُعتورَانِ
ومَالِيَ لا أبْلَى لِسَبْعِينَ حُجّةً
وعشرٌ أتَتَ مِن بَعْدِها سَنَتانِ
فلا تَسْألاني عَنْ تَباريح عِلّتِي
و دونَكُما مِنّي الّذي تَرَيانِ

مستشهدًا من خلال معاني البلاء والابتلاء التي أدخلها على النص ومقرًا بأنها هي سبب مرضه وما آلت إليه حاله.

المبحث الثالث: استدعاء العاذل والرغبة في الإذعان لعَذله

إن تَوْق الشاعر لسماع العذل والإنصات له، من أشدّ الأمور التي تلفت الانتباه، إبان استقراء دواوين الشعر الأندلسي واستنباط مادة العَذل من قصائده، وقد برَعَ الشاعر الأندلسي باستحضار العاذل في حوار ربما يكون وهميًّا ولا وجود له. فهذا ابن زيدون يدعو للإصغاء لمفردات العَذْل واصفًا إياها بالهَمس العَذْب لما لها من دلالات تنمّ عن هدوئه أثناء لَومه وعتابه:(٦٣)

أصِخْ لهَمْسِ عِتابٍ تَحْتَهُ مِقَةٌ
وكَلّف النّفْسَ مِنْها فَوق ما تَسَعُ

أي أصغِ لعتاب يُخفي محبة وكلّف النفس فوق ما تستطيع، وهذا ابن الأبار يأتي بالحجّة القاطعة في شعره الرقيق في من يحبّ رادًا على عَذل العاذلين بأنه لا يستطيع أن ينسى من يحب، بل يجد في التأنيب لذّة ومتعة:(٦٤)

عَذَلُوهُ في تَشْبِيبِهِ و نَسِيبِهِ
مَنْ ذا يُطيقُ تَنَاسِيَا ً لِحَبيبِهِ
ومَضُوا عَلى تَأنِيبِهِ وبِحَسْبِهِم
تَأبِينُهُ، مَحْيَاهُ في تَأنيبِهِ

يبين الشاعر من خلال الشاهد أنه لا يكترث في هذا العذل، وفي مَعرِض ردّ ابن الأبّار على من يسألون عن سبب ما لحقه من ضنى وتعب:(٦٥)

فلَهْفِي لِعَبْدٍ في الأصِحّاء قاعِدٍ
أعادَتْهُ أحكامُ الزّمَان مِن الزّمْنَى

يقولون: ما أضْناهُ ؟ قُلْتُ أحُجّهُم

هَوَى الغُرّةِ الغَرّاء صَيّرني مُضْنَى

وما ضرّني أنّي مَريضٌ ومُدْنَفٌ

إذا أنا لَمْ أمْرَضْ فؤادًا ولا ذِهْنَا

فهو لا يشكو المرض إنما أصابه ما أصابه من الهوى فصيّره مُتعبًا مُدنفًا . ويشتدّ الشوق إلى العَذل لدى ابن سهل:(٦٦)

وخَدّ فيهِ تُفّاحٌ و وَرْدٌ

عليهِ مِنَ العَقارِبِ حارِسان

ويَعْزُلُني العوازِلُ فيه جهلا

عَزيزٌ ما يقول العاذِلانُ

فقالوا هَل عَليك بِذا ظَهيرٍ

فقلتُ نَعَم و عَليّ شاهِدان

ويضع أبو حيان عاذله أمام خيارين؛ فإما أن يتركه وشأنه أو أن يبالغ في عَذله:(٦٧)

يا عاذِلي كُفّ عَنّي أو فزِدْ عَذْلًا

إنّي فُتِنْتُ بِمَنْ في وَجْهِهِ كَلَفُ

الوجْهُ مع مُهْجَتيإذ بَانَ مُتّفِقٌ

والنّومُ مَع مُقلتِي مُذْ غَابَ مُخْتَلفُ

فيتدرّج الشاعر في لغة الحوار مع العاذل بطلبه منه أن يفيض عليه بمزيدٍ من العَذْل. وتألف نفسُ ابن سهل الأسى وتلذّ به في أبيات تتعلق بمأساته:(٦٨)

نَفْسِي تَلذُّ الأسَى فيهِ وتَألفَهُ

هلَ تعلمون لِنَفْسي بِالأسَى نَسَبَا

قالوا عهِدْنَاك مِنْ أهْلِ الرّشادِ فَمَا

أغْواكَ؟ قُلتُ: اطلُبُوا مِنْ لَحْظِهِ السّبَبَا

فيعود الشاعر لخَلق الأعذار التي يحاول من خلالها الابتعاد عن الإطاحة بنفسه في خندق المسؤولية وإحالته لجمال عينَي من أحبّ. ويخاطب ابن الأبّار العُذّال ويدعوهم لإشهار صفات من يحبّ:(٦٩)

إنّما أنتُمُ رَيَاحِينٌ لنَا

تَنْثَنِي لِيْنَاً و تَذْكُو أرَجَا

أيُّها العُذّالُ في أدْمُعِنَا
حَدّثوا عَن بَحْرِها لا حَرَجَا
واحْكُمُوا إنّ البُكَا لَجّ بِنَا
فَعَبَرْنا عَبْرَتيْهِ لُجَجَا

وتشتدّ آصرة الحُب لدى ابن عبدربه كلما لامه عاذلٌ:(٧٠)

زادَني لَوْمُك إصْرَارًا
إنّ لي في الحُبّ أنصَارا

ويجعل الشاعر العَذْل هنا يجري لصالحه، فبدل أن يكون العذل رادعًا له يُصيّر الشاعر العاذلَ جاعلًا منه أحد أنصاره المدافعين عنه. فابن عبدربه كتم الحب ولكن الأسى هو الذي أخذ يعلنه بماء البكاء:(٧١)

كتَمْتُ الهَوَى جَهْدي فجَرّدَهُ الأسَى
بِمَاء البُكا هذا يَخُطّ و ذا يُمْلِي
وأحْبَبْتُ فيها العَذْلَ حبًّا لذِكْرِهَا
فلا شيء أشْهَى في فؤادِي مِنَ العَذْلِ
أقولُ لِقَلبِي كُلّمَا ضَامَهُ الأسَى
إذا ما أبَيْتُ العِزّ فاصْبِرْ على الذُلّ

فلا شيء أشهى لديه من سماع العَذل الذي يذكره باسمها، حتى أن الرغبة في سماع العذل يصل لمرحلة الإذلال، وسبب ذلك كله هيامه بمن أحب ويستدل على ذلك بتودده لقلبه بالصبر على ما هو به، فمطلع الشاهد الذي يرمز به إلى دلالة كتمه للحب إنما يقابله في تحديد السبب في أن تحن نفسه للعذل وسماع مفرداته التي تذكره بها .

إن المتتبع لشعر ابن عبدربه وشعر ابن الأبّار في هذا الصدد يجد أن العَذْل والرغبة في الاستماع إليه هو أمْر لازمٌ حتى أصبح جزءًا حيويًا من نسيج شعرهما، وقد كان العَذْل لدى كل منهما يحتل مساحة كبيرة بالنسبة لدواوينهم الشعرية . وقد ظهر ابن عبد ربه بصفة العاذل الذي يوبّخ نفسه قائلًا:(٧٢)

أيا وَيْحَ نَفْسِي و وَيْلَ أُمّها
لِمَا لقِيَتْ مِنْ جَوَى هَمّها
فديتُ التي قَتَلَت مُهجتي
ولم تتقِ اللهَ في دمّها

فيجعل نفسه فِداءً لتلك التي يهوى، وقد جاء بالعُذر لها، وفي الغرض نفسه يطلب أبو حيان العَذْل ويقرنه بخلق العُذر في آن واحد:(٧٣)

واعْذِلْ ثُمّ اعْذِرْ مِنْهُ صَبًّا
تَشَاغَلَ بالبَنينَ وبالرِّفاءِ
ورُبّتَما يُقيمُ لدَيّ عُذْرًا
أرَقُّ مِن الهَبَاءَة والسّفَاءِ

وتكرار مصطلح الاعتذار خلال الشاهد جاء بصفته مُعادلاً لحجة العَذْل، فاقتران العَذل والعُذر يعد من الأنساق التي ترتقي بالوحدة العضويّة لبيت القصيد تناغماً مع الحالة النفسيّة التي انطوى عليها الشاعر عند نظمه المقطوعة الشعريّة، إلا أن اختلاق الأعذار لم يعُد ذا جدوى لديه حتى قام بالعتب الشديد المشفوع بالحجّة القاطعة:(٧٤)

ألا أبلِغْ فُلانَ الدّين عَتْبِي
عليهِ فقَدْ تَمَادَى فِي الجَفَاءِ
صَفَوْتُ لهُ ضَمِيرًا واعتقادًا
فجازاني بِمَذْقٍ لا صَفَاءِ

ويعد امتلاك الشاعر للحجّة التي يحاول أن يدافع من خلالها عن قضيته من الأساسيات التي يرتكز عليها العَذل كما أسلفنا الحديث في التوطئة؛ فابن حزم في إحدى مقطعاته يتهم عاذله بأنه ظالم قد أسرَفَ في لومه على حبه لحسناء، وأنه يمتلك الردّ على عاذله مع ملاحظة التَوق لسماع عذله له:(٧٥)

وذي عَذْلٍ فيمَنْ سَبَانِي حُسْنُهُ
يُطِيلُ مَلامي في الوجُوهِ ويَقُولُ
أفي حُسْنِ وَجْهٍ لاحَ لَمْ تَرَ غَيْرَه
ولَمْ تَدْرِ كيفَ الجِسْم أنت قتِيلُ
فقُلْتُ لهُ أسْرَفْتَ في اللّوم ظالِمًا
وعَنْدِي ردٌّ لَو أشاءُ طويلُ
أَلَمْ تَرَ أنّي ظاهِريٌّ وَ أنّنِي
علَى ما بَدا حَتّى يَقومَ دَليلُ

مسوّغًا ذلك بأنه ظاهري المذهب لذلك أخذ في هذا الذي سباه في الظاهر ولم يقبل لوم العذول فيه؛ وهذا من حسن التعليل حيث أتى الشاعر بعلة مقبولة ومستحسنة تؤكد ما يقول وتبرهن على صحته . وبَرَعَ ابن زيدون في خلع الأعذار لمن عذله:(٧٦)

عُذْري . عَذَلْتُ في خَلْعِ عُذْري غُصُنٌ أثْمَرتْ ذُراه بِبَدْرِ

بأن من يحب هو بدر منير كغصن مثمر، ومن أشهر القصائد التي نظمها ابن حزم الأندلسي في العَذْل متحدثًا عن ظاهريته واقتصاره على الأدلّة النصيّة كمصادر للأحكام الشرعية وعدم الأخذ بالرأي والقياس ومما جاء فيها:(٧٧)

قالوا تحفّظْ فإنّ الناسَ قَد كَثُرتْ
أقوالُهُم وأقاويلُ العَدَاءِ مِحَنُ
هل عَيْبُهُم لِي غَيْر أنْ لا
أقولُ بالرّأي إذْ في رأيِهم فِتَنُ
وأنني مُولَعٌ بالنّصّ لَسْتُ إلى
سِوَاه أنْحُو و لا في نَصْرِهِ أهِنُ
لا أنثِني نَحْو آراء يُقالُ بِهَا
في الدّينِ بل حَسْبِيَ القُرآنُ و السّنَنُ
يا بَرْدَ ذا القوْلِ في قَلبِي وفي كَبْدِي
ويا سُرُوري بِهِ لَوْ أنّهُم فَطِنُوا
دَعْهُم يَعُضّوا على صَمّ الحَصَى كَمَدَا
مَنْ مَاتَ مِنْ قَوْلِهِ عِنْدِي لَهُ كَفَنُ
إنّي لأعْجَبُ مِنْ شَأني و شَأنِهِمُ
وَاحَسْرَتَا إنّني بِالنّاسِ مُمْتَحَنُ
ما إنْ قَصَدْتُ لأمْرٍ قَط أطلُبُهُ
إلا وطارَتْ بِهِ الأظعانُ و السّفُنُ
أمَا لهُم شُغْلٌ عَنّي فيُشْغِلَهُم
أو كُلّهُم فِيّ مَشْغُولٌ و مُرْتَهَنُ
كأنّ فِكريَ شَيْخٌ بِهِ أمَروا
فليسَ يَغْفَلُ عَنّي مِنْهم لُسنُ
إن غِبْتَ عَنْ لحْظِهم ماجوا بِغَيْظِهم
حَتّى إذا مَا رَأوْنِي طالَعًا سَكَنُوا
دَعَوا الفُضولَ لِلْبيانِ لِكَي
يَدْرِي مُقِيمٌ عَلى الحُسْنَى وَمُغْتَبِنُ

وحَسْبي الله في بَدءٍ و في عَقْبِ

بِذِكْرِهِ تَدْفعُ الغاراتُ و الإحَنُ

تجلّت الحالة النفسية التي أثّرت في الشاعر إبان إنشاء هذه القصيدة، من خلال مفردات كان لها وَقْع مؤثر على الشاعر، منها ما جاء في القافية وقد تمحورت حول مصطلحات فيها إشارة إلى ما عانى به من ظلم وافتراء قومه عليه ومنها قوله: (مِحَنْ فِتَن، أهن، كفن، ممتحن، مغتبن، مرتهن، الإحَنْ) وظف الشاعر هذه المصطلحات لتكون في قافية القصيدة لما لها من موسيقى تسقط على وتر حسي لدى من تقوّل عليه وعَذَله، ومن المفردات التي طغت على الشريحة الأولى في النص هي تقوّل الآخرين عليه ومنها: (قالوا، أقوالهم، أقاويل، أقول، يقال، القَول، قَوله) وتصدّر كلمة قالوا في مطلع القصيدة يكشف الغرض الرئيس من نظمها وهو تأليف الحديث وافترائهم عليه.

وبالتالي تتضح ظاهريّة ابن حزم في ذكره للنص الذي يقصد به القرآن الكريم والسنة، وكلمة آراء تشير إلى القياس في صياغة الأحكام الشرعية، وابن حزم يستدل بالنص ويقتصر عليه في كمصدر رئيسي لهذه الأحكام، ولا يأخذ بالرأي والقياس.

وفي الشريحة الأخيرة من القصيدة استطاع الشاعر أن يثير انتباه المتلقّي بأنه كان شغلهم الشاغل حتى إذا ما غاب عن عيونهم شطّوا غضبًا.

حيث تمثل هذه الأبيات دلالة ظاهرة العذل التي لاقت رواجا من قبل الشعراء الأندلسيين، ومدى ارتباطها بالحالة النفسية التي تؤثر على الشاعر جرّاء عذله ولومه، وإنّ سرد الأحداث بشكل متسلسل ومفردات اللّوم خلال الأبيات جاء متوافقًا والحجج التي كان يقدمها لمن يعذله.

المبحث الرابع: العاذلة في الشعر الأندلسي

العاذلة تقليدًا فنيًا: "هو نَسَقٌ صِيغَ من الشعر يستحضر الشاعر خلاله صوتًا غير صوته ليجري معه حوارًا على سبيل التقليد المتوارث كوقوف الشاعر على الأطلال واختلاقهم للحوار مع الحجارة والأثافي وبكائهم الضعن، فالعَذْل الذي يجابه الشاعر فهو كذلك يصدر عن امرأة لأن اللوم والعتاب والملاحاة قريب من نفوس النساء"[٧٨].

فلم تغب العاذلة عن ساحة شعر العَذل في الأندلس ، فيخاطب ابن عبدربه إحدى العاذلات باستخدام أداة النداء للقريب متهمًا لومها له بالمؤلم:[٧٩]

أعَاذِلَ قَدْ آلمْتِ وَيْكِ فلومي

وما بَلّغَ الإشراكَ ذَنْبُ عَدِيمِ

لقَدْ أسْقَطْت حقّي عليكِ صبابتي

كما أسْقَطَ الإفلاسُ حَقّ غَرِيمِ

إلا أن المفارقة تكمن بأنه يطالبها بمزيد من اللّوم والعَذْل، ويكشف الوضع النفسي المتأزم لابن عبدربه ذلك العُذر الذي قدمته له عاذلته عمّا أصابه من سقم؛ فحالته تغني عن الحديث وقد تجلت الحجّة البصريّة في ما شاهدت عليه من حال لا يُرثى لها:(٨٠)

قلبي رهينٌ بين أضلاعي
مِن بين إيناسٍ وإطماعِ
مَن لسقيمٍ مالهُ عائدٌ
وميّتٍ ليس له ناعي
لما رأت عاذلتي ما رأت
وكان لي من سمعها واعي
قالت ولم تقصد لقيلِ الخنى
مهلاً لقد أبلغت أسماعي

ولربّما أن ابن عبدربّه اختلق من نفسه عاذلة تناشده بتذكّر من يهوى وبقائه على العَهْد، مستخدماً أسلوب النداء للبعيد في دلالة على ابتعاد من يحب عنه وهجرانه له:(٨١)

يا طويل الهجرِ لا تنسَ وصلي
واشتغالي بك عن كل شغلِ
لا سَلَتْ عاذلتي عنهُ نفسي
أكثري في حُبّهِ أو أقلّي

مُتودداً لمن قطعه بإعادة الوصل لأنه دائم التذكّر والانشغال بها، وأما ابن سهل فجعل من نفسه نورًا تلتفّ حوله العواذل كفراشات تجتمع عند بريق النار جاعلًا من الشوق نارًا تُصلي كل من يقترب منها:(٨٢)

ترى العواذل حولي كالفراش وقد
حاموا فأحرقتهم بالشوق في فرُشي

والإعجابُ بعَذل العواذل يصل لأن يصفَ الشاعرُ اللّوم وحبيبه بأنهما متلازمان لا يفترقان(٨٣):

ويُعجبُني عَذْلُ العواذِلِ في التي
أخِفُّ لها شَوقًا بما ثَقُلت خَطْوا
حبيبٌ إليّ اللّومُ فيمن أُحبُهُ
ليمتاز صِدقُ العِشْقِ فيه من الدعوى

فنجده قد صنع من اللوم شخصًا وشبهه بالحبيب الذي يقرّبه ولا يبعده عمن يحب، وفي حوار عذلي شيّق يسرد ابن حمديس تجربته في الحب؛ فعَذلُ العاذلة يذيب قلبه بعد أن اشتكى لمن يحب ألم الجوى:(٨٤)

أذَبْتِ فؤادي يا فَدَيْتُكِ بِالعَتْبِ
ولَوْ بِتَّ صبًّا ما عَنُفَتِ على صَبِّ
وقاتِلَتِي بينَ الغَواني كَأنّها
مُصوّرةٌ بالعَيْنِ في حبّةِ القلبِ
شَكَوْتُ إليها لوعة الحُب فانثنت
تقول لتربيها وما لوعة الحُبّ
فقيلَ عذابٌ لو أحَطْتِ بعلمهِ
لجدتِ على الصّادي بماء اللّمى العَذْبِ
وقالكِ الهوى إذ لم تذوقيه ضُرّهُ
وهل تُحدِثُ الخمرُ الخمارَ بلا شُربِ

يتضح من خلال الشاهد دخول الحوار ضمنيا إلى حوار آخر، وربما هو مُصطنع عندما وجهت محبوبته السؤال لخليلتها عمّا يسببه الحُب من حُرقة وحزن؛ فأجبنها بأنه عذاب، فمما يلاحظ بأن العذل يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالعتب والعتب هنا هو رديف اللوم، واللوم كما جاء في الشاهد قد فعل بالشاعر ما يفعله العذل وربما أشدّ منه.

يقول ابن عبدربّه في إطار الحديث عن العاذلات في هذا الباب وقد تمّ ذكر الشاهد في باب آخر وللضرورة أُعيد الاستشهاد به:(٨٥)

حَسَرَ المَشيبُ قِناعَهُ عَن رأسِهِ
وصَحَا العواذِلُ بَعْدَ طولِ مَلامِ

يشبّه في استعارة تصريحية جميلة رأسه مكسوًّا بقناع من المشيب ليكتمل في عجز الشاهد تشبيهٌ تمثيلي تنهض فيه العواذل بعد أن طال لومهنّ له . ومن الشواهد التي سبق ذكرها في هذه الدراسة قول ابن عبدربه في العواذل بأنهن يعذلنه منذ الصباح الباكر:(٨٦)

بَكَرَتْ عَليّ عَواذلي يَلْحَيْنَني
وعلى الذي لَمْ يُعدِني أعدَيْنَني

وينمّ ابن الأبار عن حقيقة للنساء العاذلات تكمن في امتهانهنّ اختلاق الكذب والافتراء(٨٧):

لو أن سود جفونها بيضٌ إذن
زَحَفَت بها الفُرسانُ للفُرسانِ

عمِدَتْ إلى أخذي ويا عجبًا لها
أيؤاخذُ المفتونُ بالفتّانِ
لجّت فتُعرِضُ عن يقين صبابتي
للعاذلاتِ يجنُنَ بالبُهتانِ

مستخدمًا صيغة المُبالغة في وصف جمالها بـ(الفتّان) مُسقطًا على نفسه صيغة اسم المفعول (المفتون) مما أضفى على النصّ جمالًا في التعبير بعجبه الشديد من عتبها ومؤاخذتها له ويشير ابن حمديس إلى الغرض الذي ترمي العاذلات إليه:(٨٨)

إنّ النواعمَ في العتابِ لها
غَرَضٌ إليه جميعها ترمي

وهنا تختلف القضية عند ابن حمديس؛ بأن الفتيات يمتهنّ صفة العتاب في إشارة إلى توافق النساء في غرض اللّوم والعتاب، فالفتاة كذلك كانت عاذلة وعاتبت المُحب حالها حال غيرها؛ بل كان عتابها وعذلها أشدّ وطأة على الرجل بسبب الطبيعة الخاصة في النساء التي تتطلب منهنّ الغيرة أو الأنفَة.

خاتمة:

خلُصَت هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج والتوصيات منها:

- تجلّت ظاهرة العَذل في الشعر الأندلسي لدى معظم الشعراء الأندلسيين ولم يقتصِر ظهورها في ديوان واحد أو لدى شعراء مُعينين، وقد استحوذت على حصة كبيرة في أشعارهم .
- زخرت دواوين الشعراء الأندلسيين بجزئيات مستقلة حول العَذل والعُذّال فشغلت مطالع قصائدهم وتخللت منتصفها وختمت آخرها حَسْب ما تقتضيه الوحدة الموضوعية لأبيات القصيدة.
- نجح الشعراء الأندلسيون في إقحام العَذل في معظم أشعارهم وعلى اختلاف موضوعات قصائدهم فظهر العَذل في المدح والغزل، وظهر بشكل جليّ في مواطن الحُب والشيب والشوق والحنين الوطن.
- اقترن العَذلُ باللّوم في مواطن عديدة في دواوين الشعر الأندلسي، مما نمّ عن مدى الارتباط الدلالي للمعاني في قالب القصيدة، وعدم ابتعاد الشاعر عن المغزى الرئيسي في وحدة القصيدة العضويّة.

-بان من خلال الدراسة اهتمام الشعراء الشديد بالعذل و تذوّق كلماته من قبل العاذلين والتشوّق لسماع مفرداته، واختلاق العاذل وافتراض وجوده لإلقاء العَذل على مسامعه، وعَذْل الشاعر لنفسه إذا لم يجد من يعذله.

-جاء العَذلُ بعدّة مترادفات أدّت جميعها الغرض الرئيس من ورائه ولكن بنسب متفاوتة فاستخدم الشعراء مصطلحات العَذْل و اللّوم و اللّحي في التعبير عن المُحتوى العام لمناسبة القصيدة، وقد أخذ اللّحيُ منحى مختلفًا عن العَذل من ناحية تعريفه.

-تبيّن من خلال الدراسة اهتمام العاذلة الأنثى بعَذل الرجل وعدم اقتصار العذل على جنس الرجال، بصورة وصلت إلى حد المُبالغة وعدم تركه وشأنه.

التوصيات:

يوصي الباحث بضرورة تقصّي هذا الجانب من الشعر والتوقف عنده وتحليله من أبعاد أخرى في أُطره المختلفة (الاجتماعية أو النفسية)؛ وقوفًا عند الأثر الذي تركه العَذل في ذات الشاعر، حتى جذبه لأن يتقبّل العَذل وسعى إليه بشتى الأساليب، وكذلك دراسة ظاهرة العَذل في مضمونها الفنّي، واستخراج الصور الفنيّة التي وُظّفَت للتعبير عن الدلالات التي طمح الشاعر الأندلسي إلى تحقيقها من خلال اللوحات الشعريّة الفنية في دواوين الشعر الأندلسي.

المصادر والمراجع

-القرآن الكريم

-ابن الأبّار ، أبي عبدالله محمد البلنسي القُضاعي (٥٩٥-٦٥٨)، ديوان ابن الأبّار قراءة وتعليق: عبدالسلام الهرّاس، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- المملكة المغربية -١٤٢٠هـ/١٩٩٩م

-البغدادي، عبدالقادر بن عُمر(١٠٣٠-١٠٩٣هـ) : **خِزانة الأدب ولُبّ لباب لسان العرب**،ج١، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه: محمد نبيل الطريفي، دار الكتب العالمية، بيروت-لبنان/١٩٧١م.

-ابن حزم،أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الظاهري (ت٤٥٦هـ): **ديوان ابن حزم**،ط١،جمع وتحقيق ودراسة: صبحي رشاد عبدالدايم،جامعة الأزهر،دار الصحابة للتراث بطنطا،١٤١٠هـ ، ١٩٩٠م.

-ابن حمديس، عبدالجبّار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الصقلّي السرقوسي (ت٥٢٧هـ): **ديوان ابن حمديس**، وقف على طبعه: جلستينو سكيابارللي، روميا الكُبرى/١٨٩٧م.

-أبو حيان ، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الغرناطي(ت٧٤٥هـ) ، **ديوان أبي حيان** ، تحقيق: أحمد مطلوب و خديجة الحديثي، ط١، مطبعة العاني –بغداد ١٣٨٨هـ /١٩٦٩م.

-ابن خاقان، أبي نصر الفتح بن محمد بن عُبيدالله الأندلسي الإشبيلي (ت٥٢٩ هـ) : **مطمح الأنفس ومسرح التأنُّس في مُلَحِ أهل الأندلُس**،ط١، تحقيق: محمد علي الشوابكة، دار عمار، مؤسسة الرسالة ،لبنان١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

-ابن خفاجة، أبو إسحاق ابراهيم بن أبي الفتح بن عبدالله(ت٥٣٣هـ)،**ديوان ابن خفاجة**، تحقيق: السيّد مصطفى غازي، الناشر منشاة المعارف بالاسكندرية، ١٩٦٠م

-الزبيدي ، الإمام اللغوي محمد مرتضى: **تاج العروس**، ط١، المطبعة الخيرية بجمالية مصر مادة (عَـذَلَ) مصر/١٣٠٦هـ

-الزيد،أسماء بنت عبدالله بن محمد: **عذل الشاعر في الشعر العربي القديم حتى نهاية العصر الأموي**، جامعة أم القرى ، كلية اللغة العربية ، المملكة العربية السعودية ، ١٤٢٥هـ ، ٢٠٠٣-٢٠٠٤م

-السامرائي، خالد ناجي : العاذلة في الشعر القديم ، **مجلة كلية التربية للبنات** ، المجلد ٢٧ (٣) جامعة بغداد ،٢٠١٦

-ابن سهل ،الإشبيلي، أبو إسحق إبراهيم الإشبيلي (٦٤٩ هـ) **ديوان ابن سهل الأندلسي** ،ط١ جمعه ورتبه وضبطه : أحمد حسين القرني، المكتبة العربية /شارع درب الجماميز بمصر،١٣٤٤هـ -١٩٢٦م

-ابن سيدة، أبو الحسن علي بن إسماعيل(٤٥٨هـ) : **المحكم والمحيط الأعظم**، ،ط١ ، تحقيق عبدالحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان- ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

-الصاحب، إسماعيل بن عباد (٣٨٥هـ): **المُحيط في اللغة**، باب(العين والذال) تحقيق: محمد حسن آل ياسين ،الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت ١٤١٤هـ /١٩٩٤م

-ابن عبدربه، أبو عمر أحمد بن محمد(ت٩٤٠هـ): **ديوان ابن عبدربه** ، ط١، جمعه وحققه وشرحه : محمد رضوان الداية ، مؤسسة الرسالة،بيروت –شارع سوريا/ ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

-علي، رعد أحمد: ظاهرة العذل في الشعر الجاهلي/دراسة تحليلية ، الجامعة المستنصرية-كلية الآداب- **مجلة كلية التربية الأساسية**، العدد الخامس والسبعون/٢٠١٢م.

–غازي، هدى: العاذلة في خمريات الأخطل بوصفها معادلًا موضوعيًا ، **مجلة كلية التربية الأساسية**، الجامعة المستنصرية ، العدد الثاني والسبعون ، ٢٠١١م

–ابن زيدون، أحمد بن عبدالله بن أحمد بن غالب المخزومي ت(٣٦٤هـ): ابن زيدون، أحمد بن عبدالله بن أحمد بن غالب المخزومي (ت٤٦٣هـ): **ديوان ابن زيدون ورسائله** ،د.ط، شرح وتحقيق: علي عبدالعظيم ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مطبعة الرسالة، نشر مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة ، ١٣٧٤هـ، ١٩٥٥م

–المازني، كعب بن زهير بن أبي سلمى(ت٢٦هـ) : **ديوان كعب بن زهير**، حققه وشرحه وقدم له: علي فاعور، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العالمية ، بيروت- لبنان١٤١٧هـ/١٩٩٧م

–ابن منظور ،أبو الفضل جمال الدين بن مكرم(ت٧١١هـ)، **لسان العرب** ، تحقيق: أمين محمد عبدالوهاب و محمد الصادق العبيدي، ط٣، دار إحياء التراث العربي ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٩م-١٤١٩هـ ، مادة (عَذَلَ)

–الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري(ت٥١٨هـ): **مجمع الأمثال** ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ،ط١، مطبعة الحلبي ،القاهرة ،١٩٨٧م

–ابن هانئ ، أبو القاسم محمد بن هانئ الأزدي الأندلسي(ت٣٦٢هـ)،: **ديوان ابن هانئ الأندلسي**، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، ١٩٨٠م

–يونس، انتصار: **السلوك الإنساني**، دار المعارف – مصر/ ١٩٧٢ م.

الهوامش:

(١)الزبيدي، محمد مرتضى(ت١٢٠٥هـ): **تاج العروس**، ط١، المطبعة الخيرية بجمالية مصر مادة (عَذَلَ) مصر/،١٣٠٦هـ

(٢)ابن منظور ،أبو الفضل جمال الدين بن مكرم(ت٧١١هـ)، **لسان العرب** ، مادة (عَذَلَ) تحقيق: أمين محمد عبدالوهاب و محمد الصادق العبيدي، ط٣، دار إحياء التراث العربي ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٩م-١٤١٩هـ

(٣)الصاحب، إسماعيل بن عباد (٣٨٥هـ): **المُحيط في اللغة**، باب(العين والذال) تحقيق: محمد حسن آل ياسين، الطبعة الأولى، عالم الكتب، بيروت ١٤١٤هـ /١٩٩٤م

(4)الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري (ت ٥١٨هـ): **مجمع الأمثال** ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ،ط١، مطبعة الحلبي ،القاهرة ،١٩٨٧م،ص٢٤٠

(٥)ابن سهل، أبو إسحق إبراهيم الإشبيلي (٦٤٩ هـ) **ديوان ابن سهل الأندلسي** ،ط١ ، جمعه ورتبه وضبطه : أحمد حسين القرني، المكتبة العربية /شارع درب الجماميز بمصر،١٣٤٤هـ -١٩٢٦م،ص٨٠

(٦)ابن الأبّار ، أبو عبدالله محمد البلنسي القُضاعي (٥٩٥-٦٥٨): **ديوان ابن الأبّار**، قراءة وتعليق: عبدالسلام الهرّاس، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- المملكة المغربية -١٤٢٠هـ/١٩٩٩م،ص٢٣٤

(٧)الديوان: ابن الأبّار،ص١٦٤

(٨) ابن هانئ ، أبو القاسم محمد بن هاني الأزدي الأندلسي(ت٣٦٢هـ)،: **ديوان ابن هانئ الأندلسي**، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، ١٩٨٠م ، ص٦

(٩)الديوان: ابن الأبّار ،ص١٩٣

(١٠)الديوان: ابن سهل،ص67

(١١)الديوان: ابن سهل ،ص٩٧

(١٢)المصدر نفسه ،ص١٠٤

(٤)ابن حمديس، عبدالجبّار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الصقلّي السرقوسي(ت٥٢٧هـ): **ديوان ابن حمديس**، وقف على طبعه: جلستينو سكيابارللي،روميا الكُبرى/١٨٩٧م،ص٣٢٩

(١٤)الديوان:ابن حمديس ،ص٣٣٩-٣٤٠

(١٥)البغدادي، عبدالقادر بن عُمر(١٠٣٠-١٠٩٣هـ) : **خِزانة الأدب ولُبّ لباب لسان العرب**،ج١، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه: محمد نبيل الطريفي، دار الكتب العالمية، بيروت-لبنان/١٩٧١م،ص٣٠٣

(١٦)الديوان:ابن الأبّار،ص١٥٧

(١٧)الديوان: ابن الأبّار،ص٢٣١-٢٣٢

(١٨) ابن منظور:مادة(لحا)

(١٩) ابن عبدربه، أبو عمر أحمد بن محمد(ت٩٤٠هـ)، **ديوان ابن عبدربه** ، ط١، جمعه وحققه وشرحه : محمد رضوان الداية ، مؤسسة الرسالة، بيروت –شارع سوريا/ ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م،ص١٧٠

(٢٠)ابن خفاجة، أبو إسحاق ابراهيم بن أبي الفتح بن عبدالله(ت٥٣٣هـ)،**ديوان ابن خفاجة**، تحقيق: السيّد مصطفى غازي، الناشر منشاة المعارف بالإسكندرية، ١٩٦٠م ،ص١٩٨

(٢١) الديوان: ابن سهل،ص٤٥

(٢٢)ابن منظور: مادة(لَوَمَ)

(٢٣)ابن زيدون، أحمد بن عبدالله بن أحمد بن غالب المخزومي (ت٤٦٣هـ): **ديوان ابن زيدون ورسائله**، ط، شرح وتحقيق: علي عبدالعظيم ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مطبعة الرسالة، نشر مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة، ١٣٧٤هـ، ١٩٥٥م

(٢٤)الديوان: ابن عبدربه ،ص١٨

(٢٥) الديوان: ابن الأبّار،ص٢٦٤

(٢٦)أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الغرناطي(ت٧٤٥هـ) : **ديوان أبي حيان** ، تحقيق: أحمد مطلوب و خديجة الحديثي، ط١، مطبعة العاني –بغداد ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م،ص٣٧٣

(٢٧)الديوان: ابن زيدون، ص٢٧٦

(٢٨)الديوان: ابن سهل، ص١٠٥

(٢٩)الديوان: ابن الأبّار، ص٢٧٠

(٣٠)الديوان: ابن الأبّار، ص٢٥٧

(٣١)الديوان: أبوحيان، ص٤٨٩

(٣٢)الديوان: ابن سهل، ص٩٥-٩٦

(٣٣)الديوان: ابن حمديس،ص٦

(٣٤) الديوان: ابن الأبّار، ص٢٣٥

(٣٥) الديوان: ابن عبدربه، ص٢٨
(٣٦)الديوان: ابن الأبّار، ص٣١٩
(٣٧) الميداني،ص١٦٠
(٣٨)الديوان: ابن الأبّار،ص٥٣
(٣٩) الديوان: ابن الأبّار، ص١٥٤
(٤٠) الديوان: أبو حيان،ص١٥٣-١٥٤
(٤١) الديوان: ابن الأبّار،ص٢٨١
(٤٢)يونس، انتصار: **السلوك الإنساني**، د.ط، دار المعارف – مصر/ ١٩٧٢ م.
الديوان: ابن الأبّار،ص٢٢٦ (٤٣)
(٤٤)الديوان: ابن حمديس،ص١١
(٤٥)الديوان: ابن حمديس، ص٣٢٣- ٣٤٢
(٤٦) رؤد: يقال للغصن الذي نبت من سنت أرطب ما يكون وأرخصه: رؤد والواحدة رؤدة، انظر: لسان العرب ، فصل الراء، مادة (رأد)
(٤٧) الديوان: أبو حيان، ص ٣٧٥
(٤٨)الديوان: أبو حيان، ص٤١٨
(٤٩)الديوان: ابن الأبّار،ص١٨٤
(٥٠)الديوان: ابن الأبّار، ص١٣٨
(٥١)الديوان: ابن الأبّار، ص٢١٢
(٥٢)الديوان: ابن الأبّار، ص٣٠٧
(٥٣)الديوان: ابن الأبّار، ص٦٣
(٥٤) الديوان: ابن الأبّار، ص٣٠٢
(٥٥) الديوان: ابن عبدربه، ص١٥٧
(٥٦)الديوان: ابن الأبار، ص١٠٤
(٥٧)الديوان: ابن الأبّار، ٤٩٥
(٥٨)الديوان: ابن عبدربّه، ص١٧٨
(٥٩)الديوان: أبو حيان ،٤٦١
(٦٠) المازني،كعب بن زهير بن أبي سلمى(ت٢٦هـ) : **ديوان كعب بن زهير**، حققه وشرحه وقدم له: علي فاعور، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العالمية ، بيروت- لبنان١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ص٦٠
(٦١)ابن خاقان، أبي نصر الفتح بن محمد بن عُبيدالله الأندلسي الإشبيلي (ت٥٢٩ هـ) : **مطمح الأنفس ومسرح التأنُّس في مُلَحِ أهل الأندلُس**،ط١، تحقيق: محمد علي الشوابكة، دار عمار، مؤسسة الرسالة ،لبنان١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.ص٢٧٤
(٦٢) الديوان: ابن عبدربّه، ص١٦٥-١٦٦
(٦٣) الديوان: ابن زيدون، ص٣٠٠
(٦٤) الديوان: ابن الأبّار، ص٨١
(٦٥) الديوان: ابن الأبّار، ص٣١٤

(٦٦)الديوان: ابن سهل، ص٩٤
(٦٧)الديوان: أبو حيان، ص٣٠٦
(٦٨) الديوان: ابن سهل، ص١٤
(٦٩)الديوان: ابن الأبّار، ص١١٥
(٧٠)الديوان: ابن عبدربه ، ص٧٠
(٧١) الديوان: ابن عبدربه، ص١٢٣
(٧٢) الديوان: ابن عبد ربه، ص١٦٣
(٧٣) الديوان: أبو حيان، ص١٠٧
(٧٤) الديوان: أبو حيان، ص١٠٦
(٧٥) ابن حزم ،أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الظاهري(ت٤٥٦هـ): **ديوان ابن حزم**،ط١،جمع وتحقيق ودراسة: صبحي رشاد عبدالدايم، جامعة الأزهر، دار الصحابة للتراث بطنطا،١٤١٠هـ ، ١٩٩٠م، ص٢٥
(٧٦) الديوان: ابن زيدون، ص٢٣٠
(٧٧) الديوان: ابن حزم، ص٦٣
(٧٨)السامرائي، خالد ناجي : العاذلة في الشعر القديم، **مجلة كلية التربية للبنات**، المجلد ٢٧ (٣) جامعة بغداد،٢٠١٦م
(٧٩) الديوان :ابن عبدربه، ص١٥٢
(٨٠) الديوان: ابن عبدربّه، ص١٠٩
٨١) الديوان: ابن عبد ربّه، ص١٣٥-١٣٦
٨٢) الديوان: ابن سهل، ص٥٩
(٨٣) الديوان: ابن الأبّار، ص٤٣٥
(٨٤)الديوان: ابن حمديس، ص١٨
(٨٥) الديوان: ابن عبد ربه ، ص١٥٧
(٨٦) الديوان: ابن عبد ربه، ص١٧٠
٨٧( ) الديوان: ابن الأبّار، ص٣١٠
(٨٨)الديوان: ابن حمديس ، ص٣٥٧